ابعاده فلم يستطيعوا وقدموا له علفاً فابى ان يذوق منهُ شيئاً. وفي صباح اليوم التالي وجدوهُ متمدداً بلا حراك على قبر فارسه

٢٠

وفي اثناء هذه الحوادث التي جرت في جبل اللكام كانت راحيل المنكودة لا تزال تقاسي من العذاب امرّهُ في دار المقدم زين بالبترون. وكانت قد سلكت بالتام والكمال على موجب نصائح الاب يوحنا ومشوراته على امل ان ترى اقبالاً عليها من بعلها ولكنهُ ما كان يزيد سوى إعراض وصدّ

وفي مساء ذات يوم اشتدَّ حزنها وخانها جلدها فسارت الى كنيسة البترون لعلها تبرّد هناك بالصلاة حرارة قلبها. وكانت الكنيسة في تلك الساعة فارغة وقد امتد عليها بساط السكينة والهدوء. والكهنة قد اتمّوا من زمان يسير صلاة المساء فبقيت بقيّة من روائح البخور منتشرة في جوّها. ثمَّ ان الشمس كانت قد مالت الى المغيب ودخلت اشعتها الصفرة من النوافذ القليلة المصنوعة على هيأة الرامي

ومن اوصاف الكنيسة المذكورة انها كانت ذات ثلاثة اسواق وثلاث حنايا شيّدها الصليبيّون بموجب الهندسة القوطيّة يختلط بها شيء من الهندسة الشرقيّة. واقاموا من جهة الهيكل شيئاً اشبه بالايقونستاس عند الروم وهو عبارة عن درابزين او شعريّة من الخشب المثقّب كانت فاصلة بين المقدس وسائر الكنيسة. وكان الدرابزين المذكور مزيّناً بصور شبيهة بالصور البوزنطيّة. واما قناديل لا تزال متوقدة ليلاً مع نهار. واما ارضها المبلّطة بالفسيفساء فكانت تشتمل على رسوم ومزيّة كالحروف الابتدائيّة من اسم الخلص وصور حمام وطواويس تنقر اغصان الدوالي وسنابل القمح. وكان في أقصاها شعريّة ثانية تفصل المحل المخصوص بالنساء (ستأتي البقيّة)

صناعة النجارة في المشرق

بحث تاريخيّ وعمليّ للاديب يوسف افندي غنّام ثابت

لما كنّا انسنا ارتياحاً من القراء فيما كتبناهُ سابقاً عن بعض صنائع بلادنا رأينا ان نتحفهم بما يكشف النقاب عن صناعة النجارة الشرقيّة وفنونها وأحوالها ونذكر بالثناء

اسماء الصنّاع الماهرين والاساتذة البارعين في كلّ من هـذه الفنون إقرارًا بفضلهم وتنشيطًا لـواهم على تقفّي آثارهم وخدمةً للوطن. ونبدي هنا شكرنا الى ارباب مجلة المشرق الذين كثيرًا ما حضّونا على ولوج هذا الباب حبًّا بنشر المعارف وتخليدًا لمآثر اهل بلادنا. ولاستيفاء هذا الموضوع قدّمنا اولًا هذا النظر العمومي عن النجارة وتاريخهـا السابق في الشرق ثمّ نلحقهُ ان شاء الله بوصف فنون هذه الصناعة الشريفة

١ النجارة وتاريخها الاول

انّ النجارة صناعة راقية الى اصول العمران البشري ويستدلُّ على ذلك من شدّة حاجة الانسان اليها. ولعلّها سبقت تاريخ البناء بالحجر لان البشر الاولين وجدوا لشغل الخشب من الادوات ما لم يجدوهُ لنحت الحجارة. ومن استقرى اخبار الاقدمين وتتبّع آثار هذا الفن وجد ما اصاب عندهم من المقام الرفيع فانّ الكتابات المسمارية والهيروغليفية تذكر غير مرّة اعمال الخشب المتخذة للابنية وزينة القصور. ولا بدع فانّ فن البنّـاء وصناعة النجّار كفرسي رهان يجريان في ميدان واحد لا يستغني احدهما عن الآخر الّا نادرًا. على انّ الحجارة والآجرّ قد صبرا على آفات الزمان فامكن العلماء ان يبدوا حكمهم في ترقّي الفنون عند الاقدمين بنظرهم الى الاطلال الدارسة منها بينما لا نجد من اعمال الخشب الّا ما لا يُعبأُ بهِ

ومع قلّة هذه البقايا نرى ما كان للكلدان والاشوريين من رسوخ القدم في النجارة من ذلك اقواس بديعة الصنع ورسوم وتماثيـل تُصان حتى اليوم في متحف اللوفر في باريس او في دار العاديّات في لندن نخصُّ منها بالذكر تمثال اسد (١ وبقايا عرش ملكي في باريس وغير ذلك. ويدل على تقدم النجارة في بابل آثار عديدة بديعة الصنع من العاج او العظم فلعمري ان كان العملة اتقنوا مثل هذه المواد مع صلابتها فما قولك بالخشب الذي يقبل الحفر والنقش على وجهٍ أقرب. وكان قسمٌ من هذه الاخشاب يرصّع بالعاج او الحجارة الكريمة. يظهر ذلك من قطع منقوشة ابتاعها العلّامة دي ڤوكيه (de Vogüé). امّا الخشب الذي كان يفضّلهُ الاشوريون فكان السنديان لوجود كثير منـهُ في اعالي جبال كردستان وارمينية. وقد استجلبوا ايضًا من لبنان خشب الارز فاستعملوهُ

(١ راجع كتاب تاريخ الصناعة في القدم Perrot et Chipiez : *Histoire de l'Art dans l'Antiquité* I, 245

لابنيتهم. (راجع مقالة الاب لامنس عن الارز (في المشرق ٩ : ٩٢٣) وقد وُجدت لهم ايضاً آثار منقوشة على الابنوس والساج وغيرهما

وكان المصريين حذاقة كبيرة في النجارة فالتجأوا الى الخشب قبل استعمالهم للحديد والفاز والذهب. وقد وُجد من آثار براعتهم ما لم يوجد في بلاد غيرهم لانَّ هواء مصر يابس لا يعمل في الخشب عمل الهواء الرطب. وبعض هذه التحف المستظرفة بقي مطموراً تحت الارض فلم تقوَ على فساده طوارئ الزمان. فمن هذه البقايا الشريفة أثاث قصور الملوك وبيوت الامراء كمثل كراسي وحُقَق للعطر وآلات طرب وادوات للزينة وعصيّ يتوكّأ عليها المُشاة تنتهي برؤوس مختلفة الهيئة وكلُّ هذه الآثار منقوشة بنقوش عديدة او مرصَّعة بقطع العظم والعاج . ومنها حواجز ودوابزين وشرفيّات ومشاربيّات عليها صور الآلهة وكتابات هيروغليفيّة قديمة. ومنها ايضاً تماثيل أُحكم عملها بحيث يظنُّ من يراها انَّها حيَّة ناطقة وفي متحف العاديّات المصريّة في القاهرة عدد لا يحصى من هذه المآثر الجليلة

ويضاف الى هذه الآثار من الخشب نواويس المصريين التي كانوا يحفظون فيها موتاهم بعد تحنيطهم. وهذه التوابيت كلها منقوشة ومزدانة بالتصاوير والكتابات ومطليّة بالدهون والألوان التي كانت تقيها من الفساد وفي المتاحف منها عدد وافر. وقد وصف العلامة بيرو (Perrot) في الجزء الثاني من تأليفهِ عن تاريخ الصناعة في الزمن القديم كثيرًا من هذه الطُرَف ورسم صورها. ومما قالهُ في معرض كلامهِ انَّ عاديّات المصريين الخشبيَّة تنبئ بتقدم عظيم في الفنون الجميلة ليس فيها تلك السحة الخشنة التي نراها في آثار بابل التي سبقت عهد الصناعة المصريَّة. وكان المصريُّون يتخذون لاعمالهم خشباً وطنيًّا في الغالب كاللبخ والطلح والجميز لكنَّ الفراعنة واعيان الدولة كانوا يفضّلون خشب جبل لبنان يقدم بهِ اليهم تجار الفينيقيين فيبدلونهُ ببرافق وادي النيل .

ومن يتصفَّح اسفار التوراة يرَ نوحاً يجهّز لهُ سفينةً تقوى على مياه الطوفان مدّة اشهر متوالية دون ان يلحق بها اذًى. ولا شكَّ انَّ نوحاً ليس اوَّل من خاض غمر المياه فكان سبقهُ الى الملاحة غيرهُ فترقّى هذا الفن شيئاً فشيئاً قبلهُ. وكذلك يروي لنا الكتاب الكريم الاشغال العجيبة التي قام بها العملة الاسرائيليُّون في خدمة الدين وجاه المملكة واكثرها لم يتمَّ دون النجارة كتابوت العهد واقسام من بلاط داود وهيكل سليمان

وكان للفينيقيين اليد الطولى في عمل الخشب وحفره وتحليته بالنقوش البديعة وان لم يبلغوا شأو المصريين. وقد ذكر المشرق في وصف مراسلات تلّ العمارنة ما كان لهم من المراكب التجاريّة والعمائر الحربيّة في القرن الخامس عشر قبل المسيح. ولا غرو فانّ الاحراج والغابات التي كانت تكلّل رؤوس لبنان في ذلك العهد كانت تقرّب اليهم هذه الصناعة فيستحضرون ما أرادوا من اخشابها ويتخذونها كادوات لكل فنونهم

ولمّا ظهرت دول اليونان ونال صنّاعُهم ما نالوا في الفنون الجميلة بانت النجارة عندهم مبلغاً عظيماً. بيد انّ اعمالهم الخشبيّة بادت وتلفت فلم يبقَ منها الّا ما دون القليل. وقد اسعد الحظ العلامة شليمان (Schliemann) متولّي حفر الخربة تروية بان وجد صورة سكة بالخشب حسنة النقش تدلُّ على براعة صانعها. وكذلك وُجد في مصر بعض آثار من الخشب كانت نُقلت اليها من بلاد اليونان فسلمت بين عاديّاتها. ثمّ ترقى هذا الفن عندهم حتى اخذ اهل فينيقية يتقلّدون اعمال اليونان لاسيما في تجهيز سفنهم. وقد سبق الاب دي كوبيه اليسوعي ووصف في المشرق (١٧:١ ٢) سفناً من هذا الصنف جميلة العمل تحكمة الهندسة جدرانها مرصّعة بنقوش من العاج والفضة والاصداف. واخبر عن سفينة عظمى كانت لبطليموس الملك يبلغ طولها ٤٢٠ قدماً في عرض ٦٠ يمكنها ان تُقلّ الفين من الجنود وكان في صدرها عرش بهي يجلس عليه الملك تُحدق به روضة غنّاء تصدح فيها انواع الطير

ولا نتعرّض هنا لتقدُّم صناعة النجارة بين الرومان لئلا نخرج من البلاد الشرقيّة لكننا نقول ان رومية اخذت من الشعوب التي ظفرت بها صنائعها الجميلة فكان للنجارة بين هذه الفنون نصيب حسن تدلُّ عليه بقايا كثيرة منها دينيّة ومنها عاليّة. وكفى شاهداً على ذلك الابنية العظمى التي تُنسب الى الرومان في بلادنا كهيكل بعلبك الحالي وبنايات تدمر وغير ذلك ممّا هو جدير بان يُدعى آيةً في حسن الهندسة. فكل هذه العمائر كانت تقتضي من اعمال الخشب ما يوافقها عظمةً وجمالاً لمداخلها وكواها واثاثها وادواتها ممّا ذهب به الدهر واورثنا الاسف على فقده

وكذلك للشرق الاقصى في الصين والهند فضل في الاعمال الخشبيّة يقي لنا من الادلّة على عظم شأنها بعض المعابد الدينيّة التي شيّدها اهل تلك البلاد في سالف الاعصار ولم يُخنِ عليه الدهر لحسن طليها وجودة خشبها

واذا انتقلنا الى الاعصار التي تلت عهد المسيح وجدنا لفنّ النجارة شأناً كبيراً بين الشعوب المتنصرة بقي منها الى يومنا آثار تُرى عليها رموز النصرانيّة وهي تدلّ على دقّة واحكام في العمل. الّا انّ الحروب التي ثارت في تلك الاجيال والتقلّبات السياسيّة قد اودت بكثير من الصنائع والفنون الجليلة فاصاب النجارة ما اصاب اخواتها وقامت وقتئذٍ الدولة البوزنطيّة فورثت خلفة القرون السالفة في رفع منار العلوم اجمالاً والاعمال الخشبيّة خصوصاً وبقي للقسطنطينيّة السهم الفائز في ذلك الى القرن الثالث عشر حيث تواردت الفتن وتفاقم الفساد فنزع الله عن الروم وراثة العلوم والصنائع ليغني بها الاصقاع الاوربيّة

وكان الاسلام ظهر في غضون ذلك ففتحت جنودهُ الظافرة القسم الاكبر من بلاد الشرق. فلمّا استتبَّ لهُ الامر وعادت مياه السلام الى مجاريها اخذ الخلفاء في إسعار جذوة العلوم بعد انطفائها وفتحوا لاهل الصنائع ولارباب الفنون حواضرهم فاجتمع فيها قومٌ لا يضبُطهم احصاء قدموها من مصر والشام وفارس والروم فأحيوا الصنائع بعد ميتتها وزهت بهم ضروب الفنون. ولمّا كان اصل هؤلاء الصنّعة من امم شتى اورثوا العالم الاسلامي معارف بلادهم التي أتوا منها. ولذلك يرى العلماء في الآثار الاسلاميّة خلاصة صنائع الروم والفرس والأقباط. وما يصدق عن الصنائع بالاجمال يصحُّ في النجارة خصوصاً فان الاعمال الخشبيّة التي تُرى في مصر وبغداد ودمشق وحلب ليست كلها على طرز واحد بل ترى فيها من الاختلاف في طريقة الشغل وهيئته وقواعده ما يبيّن باجلى برهان انّ هذه الاعمال تليدة موروثة اخذها عملتنا من اجيال مضت ولمم فنيت بعد ان ابقت من تمدُّنها آثاراً تنبئ بعظمها السابق. وان استقرينا التاريخ أيّد قولنا بشواهده الساطعة وادلّته اللامعة. فهذا مثلاً الجامع الاموي فانّ الوليد بن عبد الملك لمّا اراد ان يجدّد بناءهُ استدعى عشرين الف صانع من بلاد الروم كما اخبر بذلك مؤرخو الاسلام فمن يا ترى يستطيع ان ينكر انّ النقوش والاشكال الهندسيّة وفنون الصناعة التي كانت تلوح في شبكيّاته وبوابه وسائر اعماله الخشبيّة قبل الفاجعة الاخيرة التي دهمتهُ اثّرت فيها صناعة الروم. وكذا قل عن الجامع الأقصى في القدس الشريف وعن آثار مصر والاندلس والعراق فانّها كلها ملخّص فنون سابقة ورثها المسلمون بعد الفتح عمّن تقدّمهم في ملك تلك البلاد

(ستأتي البقية)